استخلاف آدم

د.عبد الحميد اضباع
جامعة الفاتح

مقدمـــــة :

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد..

فإني أستلهم الرشد من الله سبحانه وتعالى وأستعينه فيما أنا بصدده من البحث في استخلاف أبي البشرية" آدم عليه السلام".

وقد اخترت هذا الموضوع لأهميته، فهو يشد الإنسان إلى قدر نفسه ومكانته عند ربه، وأنه أهل لأن يكون خليفة الله في أرضه ليقيم موازين العدل ويحسن الصلة بينه وبين خالقه الذي جعله خليفة في الأرض وبينه وبين العباد الذين يعيشون معه.

تمهيـــــد :

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى بعد خلقه لهذا الكون بسمائه ، وأرضه ، وبحاره وأنهاره، وشمسه ، وقمره ، ونجومه ، أن يخلق من يعمره ويستخرج كنوز أرضه فخلق آدم أبا البشر (وقد سبق أن قدمت كيفية خلق الله له واستخلافه في الأرض) ليكون خليفة الله في أرضه ومن بعده ذريته فكان أول رسول ونبي يبعث لبنيه وذريته بشريعة من الله عز وجل لينير الكون وينشر دعوة التوحيد ويؤيد الحق ويبطل الباطل.

وكان أول ابتلاء ابتلاه الله به بعد هبوطه إلى الأرض هو قتل ابنه قابيل لأخيه هابيل بسبب القربان الذي تقبله الله من هابيل لإيمانه وصدقه ، وحسن معاملته لأخيه القاتل كما في قوله تعالى : ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [1] .

وبهذا القتل المتعمد سجل التاريخ أول جريمة حصلت على وجه الأرض ، وقد ذكر بعض المفسرين سبب القتل ، أن قابيل أصر على عدم تنازله لهابيل عن أخته التي ولدت معه في بطن واحدة .

والذي يهمنا في هذا الموضوع هو أن هابيل كان رجلا مؤمنا تقيا صالحا ولهذا قَبِل الله قربانه بخلاف قابيل .

وأما استخلاف الإنسان (آدم) في الأرض : فتدل عليه آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] .

وقد وردت آيات أخر في قصة آدم عليه السلام في سور متعددة من القرآن الكريم وهي مرتبطة إرتباطا قويا بموضوع الإستخلاف مثل قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

وقد قص القرآن الكريم هذا في سورة (طه) فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وقد ذكرت قصة آدم عليه السلام أيضا في سورة الحجر ، والإسراء ، والكهف، وص وقبل أن يخلق الله آدم ، خلق هذا الكون الفسيح بسمواته وأرضه ، وليله ، ونهاره وشمسه وقمره ، وجباله ، وأنهاره ، ليكون مأوى وسكنا لآدم وذريته ليقطنوا الأرض ويعمروها ويضرب نسلهم في أرجائها ويخلف بعضهم بعضا .

وهذه سنة الحياة ، الحياة التي جعلها الله سبحانه وتعالى حياة مؤقتة بالنسبة لكل ذي روح فلا بد لكل إنسان أو حيوان أن يأخذ نصيبه في هذه الدنيا مهما طال عمره أو قصر .

وهنا يجب على الإنسان العاقل أن يأخذ حذره قبل أن تأخذه الدنيا ، يجب عليه أن يتقي ربه ويعمل بما أمره به وينتهي عما نهاه عنه ، وأن يتحرى مكسبه ، ومأكله ، وملبسه ، وألا يعصي ربه في جميع معاملاته سواء كانت مع نفسه أو مع ربه أو مع العباد ، ويؤمن بأنه منتقل من دار الفناء وهي الدنيا إلى دار البقاء وهي الآخرة ، وأن

خير الزاد الذي يتزود به التقوى ، قال تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [4] .

وفي خلق الله لهذا الكون وما يحويه من لزوم الحياة فيه خلق آدم أبا البشر ليكون خليفة في الأرض ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ .

الواو في "وإذ" عاطفة على الجملة التي قبلها ، و "إذ" ظرف متعلق بفعل مقدر تقديره اذكر، وفي القرطبي : (إذ وإذا حرفا توقيت ،فإذ للماضي ، وإذا للمستقبل ، وقد توضع إحداهما موضع الأخرى ، وقال المبرد : إذا جاء "إذ" مع المستقبل كان معناه ماضيا ، نحو قوله (وإذ يمكر بك) (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) معناه إذ مكروا ، وإذ قلت . وإذا جاء " إذا" مع الماضي كان معناه مستقبلا، كقوله تعالى : ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ ، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي يجيء) [5] .

(وهي ظرف زمان للماضي مبني لشبه بالحرف وضعا وافتقارا ، أو يكون ما بعدها جملة فعلية أو اسمية، ويستفاد الزمان منها بأن يكون ثاني جزأيها فعلا ، أو يكون مضمونها مشهورا بالوقوع في الزمان المعين ، وإذا دخلت على المضارع قلبته إلى الماضي ، وهي ملازمة للظرفية إلا أن يضاف إليها زمان) [6] .

والمعنى : واذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة .

قوله تعالى : (للملائكة) جمع ملك على وزن فعل ، والتاء لتأكيد الجمعية لما في التاء من الإيذان بمعنى الجماعة ، والملائكة لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة فمن وصفهم بالذكورة فهو فاسق ومن وصفهم بأنوثة فهو كافر ، لقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [7] .

والملائكة مفهومها : هي أجسام نورانية قادرة على التشكيل والظهور بأشكال مختلفة وهي تتشكل بأشكال حسنة ، مجبولون على الطاعة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون قال فيهم جل جلاله : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [8] .

كما يجب الإيمان بهم إجمالا وتفصيلا ، وموقع هذا كتب العقيدة .

وقوله تعالى : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ .

(جاعل) بمعنى خالق ذكره الطبري عن أبي روق ، وقال الطبري : (والصواب في تأويل قوله : (إني جاعل في الأرض خليفة) أي مستخلف في الأرض خليفة) [9] .

و(الخليفة) الفعيلة ، من قولك خلف فلان فلانا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده ، كما قال جل ثناؤه : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) أي بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم وجعلكم خلفاء بعدهم ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر مقامه [10] .

فالخليفة (آدم) وخَلَفِيتُه قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي [11] .

ويؤخذ من هذه الآية أن البشر يحتاجون إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم وتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى إذ لا يستقيم نظام بجمع البشر بدون ذلك .
لا خلاف بين الأئمة ولا بين الأمة في وجوب نصب خليفة لتنفيذ أوامر الله وإقامة حدوده بدليل هذه الآية ، وآية "ص" في قوله تعالى :﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [12] .

وقد أجمع الصحابة على تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار إلى آخر القصة وهي مشهورة في كتب السيرة .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

قال أبو جعفر : إن قال قائل : وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ولم يكن آدم بعد مخلوقا ولا ذريته فيعلموا ما يفعلون عيانا أعلمت الغيب فقالت ذلك أم قالت ما قالت من ذلك ظنا فذلك شهادة منها بالظن وقول بما لا تعلم ، وذلك ليس من صفتها فما وجه قيلها ذلك لربها ، قيل قد قالت العلماء من أهل التأويل في ذلك أقوالا .....

عن ابن عباس قال : كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة قال : وكان اسمه الحرث قال : وكان خازنا من خزائن الجنة قال : وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي قال : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت قال : وخلق الإنسان من طين ، فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا قال : فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحي الذي يقال لهم الجن فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر في نفسه وقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطلع الله على ذلك من قلبه ، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله للملائكة الذين معه : إني جاعل في الأرض خليفة فقالت الملائكة مجيبين له : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما أفسدت الجن وسفكت الدماء وإنما بعثنا عليهم لذلك فقال : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [13] .

يقول ابن عاشور : (ومجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كاف في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما سيظهر منها في الخارج لأن مداركهم غاية في السمو لسلامتها من كدرات المادة ، وإذا كان أفراد البشر يتفاوتون في الشعور بالخفيات ، وفي توجه نورانية النفوس إلى المعلومات ، وفي التوسم والتفرس في الذوات بمقدار تفاوتهم في صفات النفس جبلية واكتسابية ولدنية التي أعلاها النبوة ، فما ظنك بالنفوس الملكية البحتة) [14] .

وقوله تعالى : (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ، الجملة حالية في محل نصب وهي حالة من الضمير الواقع فاعلا في " أتجعل فيها ".

والتسبيح في الأصل مطلق التبعيد والمراد به هنا تبعيد الله تعالى وتنزيهه عن السوء وعما لا يليق بجلاله ، (والمراد بقول الملائكة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك الاستفسار عن المرجع أي أتجعل فيها وتستخلف من ذكر ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك لأننا معصومون) [15] .

قوله تعالى : (قال إني أعلم ما لا تعلمون) جواب لكلامهم أي أعلم ما في صفات البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد وهذا هو سر خلق هذا الكون واستخلاف آدم وذريته فيه .

قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) اختلف علماء التأويل في معنى الأسماء التي علمها الله لآدم عليه السلام .

قيل : علمه أسماء جميع الأشياء كلها حقيرها وجليلها .

وقيل : علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب .

وقيل : علمه أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمي كل شيء باسمه .

قال النحاس : وهذا أحسن ما روي في هذا .

وقال الطبري : علمه أسماء الملائكة وذريته ورجح القرطبي القول الأول ، اهـ مختصرا [16] .

(ثم عرضهم على الملائكة) أي أطلعهم على مجموعة تلك الأشياء اطلاعا إجماليا بالإلهام أو غيره مما يليق بحالهم .

والمقصود في التعليم والعرض تشريف آدم واصطفاؤه بحيث لا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم .

(فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء) وذلك لعجزهم عن معرفة الأشياء التي علمها الله لآدم وليعلمهم أن هذا المخلوق جدير بالخلافة لتصرفه في الكون وتدبير شؤونه ولإقامة العدل في هذا الكون .

(إن كنتم صادقين) أي فيما يجول في خاطركم من أنكم أفضل من كل خلق خلقه وأعلم منه .

قوله تعالى : (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

قوله تعالى : (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) أي تنزهك ونقدسك من أن يعلم العلم أحد سواك ، وهذا جواب عن قوله (أنبئوني) فأجابوا بنفي العلم عن أنفسهم وأثبتوا العلم لله وحده الذي علمهم إياه .

(إنك أنت العليم الحكيم) العليم بكل ما حدث وما يحدث ، و "العليم" الكثير العلم وهو من أمثلة المبالغة على الصحيح ويجوز كونه صفة مشبهة على تقدير تحويل علِم المكسور اللام إلى علُم بضم اللام ليصير من أفعال السجايا .

و" الحكيم" فعيل من أحكم إذا أتقن الصنع بأن أحاطه من الخلل ، وأصل مادة حكم في كلام العرب للمنع من الفساد والخلل ومنه حَكَمَةُ الدابة (بالتحريك) للحديدة التي توضع في فم الفرس لتمنعه من اختلال السير وأحكم فلان فلانا منعه [17] .

والحكمة بكسر الحاء ضبط العلم وكماله .

وعلى القول بأن الحكيم هو ذو الحكمة يكون الحكيم صفة ذات ، وعلى القول بأنه المحكم لصنعته يكون صفة فعل [18] .

قوله تعالى : (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) بعد إظهار عجز الملائكة واعترافهم بأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى أراد سبحانه وتعالى أن يظهر فضل آدم ويبين أنه جدير بالخلافة في هذه الأرض التي خلقها الله من أجل الإنسان ليعمرها ويعيش فيها ويبرز جميع ما عنده من طاقة من أجل حياته .

نادى الله تعالى آدم باسمه ، كما جرت مخاطبته جل جلاله لسائر الأنبياء ما عدا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث ناداه : "يا أيها النبي" ، و"يا أيها الرسول" لعلو مقامه وعظم شأنه .

فقال : (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أي أعلمهم بأسمائهم التي عجزوا عن علمها واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها .

قوله تعالى : (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أي فلما أنبأهم آدم بأسمائهم وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه ، قال الله تعالى للملائكة : قد قلت إني أعلم ما غاب في السموات والأرض فلا أخلق شيئا إلا وفيه مصلحة وحكمة ولم أخلق الإنسان عبثا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [19] .

(وأعلم ما تبدون) أي من قولهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها) حكاه مكي والماوردي ، وقال الزهراوي : ما أبدوه هو بِدَارُهم بالسجود لآدم ، (وما كنتم تكتمون) قال ابن عباس ، وابن مسعود وسعيد بن جبير : المراد ما كتمه إبليس في نفسه

من الكبر والمعصية ، قال ابن عطية : وجاء (تكتمون) للجماعة ، والكلام واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها) [20] .

وهناك أقوال أخرى نيرجع إليها من شاء في كتب التفسير .

وفي هذه الآية دلالة على شرف الإنسان عن غيره من المخلوقات وتكريمه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [21] .

وفضل العلم على العبادة فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ولم يكونوا أهلا لاستحقاق الخلافة ، لأن آدم أعلم منهم والأفضل هو الأعلم بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [22] .

وفي استخلاف آدم في الأرض معنى سام من الحكمة الإلهية خفي على الملائكة ، لأنهم خلقوا للعبادة والطاعة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [23] ، ولأنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض ، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون ، ولأن الأرض محتاجة إلى من يزرعها، ويستخرج المعادن من باطنها ، ويكشف أسرار الكون ، وهذا لا يتأتى إلا لآدم وبنيه فهم القادرون على ذلك ولذلك خلقهم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [24] .

بعد أن خلق الله آدم وسواه ، ونفخ فيه من روحه ، وأعلم مكانته لملائكته ، وجعله خليفة في الأرض أمرهم بالسجود له سجود خضوع وتكريم لا سجود عبادة اعترافا بفضله واعتذارا عما قالوه في شأنه ، من قولهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها) .

واختلف المفسرون في المعنى المراد من السجود في هذه الآية ، فقيل المعنى اللغوي وليس هناك سجود بوضع الجبهة على الأرض ، وقيل إنه المعنى الشرعي ، والمسجود له حقيقة هو الله سبحانه وتعالى .

قال القرطبي : (واختلف أيضا هل كان السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى ، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام . لقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ (25) .

فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين والذي عليه الأكثر أنه كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ، فقال لهم (لا يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ لأَحَدٍ إِلاَّ لله رب العالمين) (26) .

(والسجود لله قسمان : سجود العقلاء تعبدا على الوجه المعروف شرعا ، وسجود المخلوقات كلها بانقيادها وخضوعها لمقتضى إرادته كما قال : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾(27) .

وقال : ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ (28) - (29) .

والحقيقة أن السجود لآدم لم يكن عبادة وإنما المقصود تحيةُ آدم وتعظيمه والاعتراف له بالفضل من الملائكة بعد كلامهم فيه .

وقوله : (فسجدوا) أي سارعوا إلى الامتثال وسجدوا فالفاء للتعقيب .

(إلا إبليس) استثناء منقطع لأن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ، قال تعالى في سورة الكهف : (إلا إبليس كان من الجن) ولكن الله جعل أحواله كأحوال النفوس الملكية لتأتى معاشرته بهم وسيره على سيرتهم فساغ استثناء حاله من أحوالهم في مظنة أن يكون مماثلا لمن هو فيهم (30) .

وفي القرطبي عند المسألة الخامسة : (قوله (إلا إبليس) نصب على الاستثناء المتصل لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن جريج وابن المسيب ، وقتادة ، وغيرهم ، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن ، ورجحه الطبري وهو ظاهر الآية) (31) .

والذي تميل إليه النفس وتؤيده الأدلة القول بأن إبليس من الجن لا من الملائكة ، وأن الملائكة جنس غير الجن ، وأن الاستثناء منقطع في سورة الكهف في قوله : (إلا إبليس كان من الجن) ويؤيد هذا ما روي أنه خلق من نار ، والملائكة من

النور ، كما ورد فيما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) [32] .

كما يؤيده قوله تعالى : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ .

والملائكة لا يتناكحون ، ولا يتناسلون ، ومما يؤيد على ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ ورسل الله معصومون .

وقوله تعالى : ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ، والإباء : الامتناع عن الفعل مع أنفة وتمكن منه ، والاستكبار : شدة التكبر، والسين والتاء فيه للعد أي عد نفسه كبيرا أو يكون السين والتاء للمبالغة مثل استجاب واستغفر.

(وكان من الكافرين) أي صار كافرا بعدم السجود لآدم .

قال ابن عاشور : (والذى أراه في أحسن الوجوه في معنى (وكان من الكافرين) أن مقتضى الظاهر أن يقول : " وكفر " كما قال " أبى واستكبر " فعدل عن مقتضى الظاهر إلى وكان من الكافرين لدلالة كان في مثل هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها والمعنى أبى واستكبر وكفر كفرا عميقا في نفسه وهذا كقوله تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [33] .

قوله تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) هذه الآية معطوفة على الآية التي قبلها ، ولم يختلف العلماء بأن الله أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، وبعد إخراجه قال لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، أي اتخذ الجنة مسكنا ومأوى لك ولزوجك ، وإيثار اسكن على اسكنا للتنبيه على أن آدم هو الأصل وزوجه تبع له في جميع الأمور .

(قال القرطبي في قوله تعالى (اسكن) تنبيه على الخروج ، لأن السكنى لا تكون ملكا ، ولهذا قال بعض العارفين ، السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع ، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا إقامة ، قلت : وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى ، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدة الإسكان) [34] .

فدخول آدم وزوجه الجنة كان دخول سكنى مؤقتة لا دخول تأبيد .

ولم يرد اسم زوج آدم في القرآن وقد عرف اسمها عند العرب (حواء) وقيل سميت حواء لأنها خلقت من حي .

وفي القرطبي : (أن زوج آدم عليه السلام هي حواء عليها السلام ، وهو أول من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ، ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته ، فلما انتبه قيل له : من هذه ؟ قال : امرأة ، قيل : وما اسمها ؟ قال حواء ، قيل : ولم سميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت ، قيل : ولم سميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من حي) [35] .

وقد اختلف العلماء قديما وحديثا في الكيفية التي خلقت بها حواء ، غير أن الفخر الرازي قال : (أجمعوا على أن المراد بالزوجة حواء وإن لم يتقدم ذكرها في هذه السورة وفي سائر القرآن ما يدل على ذلك ، وأنها مخلوقة منه كما قال تعالى في سورة النساء﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، وفي سورة الأعراف ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن المرأة خلقت من ضلع الرجل فإن أردت أن تقيمها كسرتها وإن تركتها انتفعت بها واستقامت) [36] .

و(الجنة) في اللغة البستان المملوء بالأشجاء والثمار ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [37] ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [38] .

وشرعا : هي دار الثواب التي أعدها الله لعباده المتقين.

أما الجنة التي أسكنها الله آدم ثم أخرجه منها ، ففي المراد بها قولان ذكرهما المفسرون :

الأول : أنها جنة في الأرض خلقها الله لآدم وزوجه واستدل أصحاب هذا القول : بأن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة وهو لم يأت بعد ، وقد وصف الله تعالى جنة الخلد التي أعدت للمتقين بأنها دار المقامة ولم يقم فيها آدم ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد فيها آدم .

إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصفت بها بأنها جنة في الأرض خلقها الله لآدم، ومن الأدلة قوله تعالى : ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (39) .

وقد حصل فيها النصب لهما وأخرجا منها وقال جل شأنه :﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ (40) .

وقد حصل فيها لغو إبليس وإثمه إلى غير ذلك من الأدلة الموجودة في كتب التفسير فمن أراد المزيد فليرجع إليها .

أما القول الثاني : أنها جنة الخلد فقالوا : في رد استدلال من قال إن جنة آدم هي جنة الربوة في الأرض، أما قولكم إن الله سبحانه وتعالى أخبر أن جنة الخلد إنما يقع الدخول إليها يوم القيامة ولم يأت زمن دخولها بعد ، فهذا أحق دخول الدوام والاستقرار ، أما الدخول العارض فيقع قبل يوم القيامة ، وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم الجنة ليلة الإسراء وهذا غير الدخول الذي أخبر الله تعالى به يوم القيامة .

وأما استدلالكم بكونها دار المقامة ودار الخلد فهذا لا يمنع من دخولها مؤقتا .

وقوله تعالى : (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) في العادة أن الهبوط هو النزول من أعلى إلى أسفل وهذا من أقوى الأدلة على أن الجنة التي أخرج منها آدم وزوجه هي جنة الخلد .

والذي تميل إليه النفس وتستريح إليه ويطمئن إليه القلب هو القول بأنها جنة الخلد.

والله أعلم بالحقيقة لأن هذه الأدلة ظنية وليست بقطعية الثبوت ولذلك يفوض الأمر إلى الله في مثل هذه الأدلة والأقوال .

وقوله تعالى : (وكلا منها رغدا حيث شئتما) ومعنى الأكل من الشجرة من ثمرها ، والرغد الهنيء الذي لا عناء فيه ولا تفتير ، (حيث شئتما) ظرف مكان أي من أي مواضع أردتما الأكل منها .

وفي سورة الأعراف (فكلا من حيث شئتما) ، وقوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) الظاهر أن هذا النهي للتحريم كما في قوله تعالى ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ﴾ (41) .

وقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [42] .

إذ لو كان النهي نهي تنزيه لما استحق آدم بفعله الإخراج من الجنة ولما وجبت التوبة عليه .

وقد جاء النهي عن الأكل من الشجرة بأبلغ أسلوب مبالغة في التحذير فقال : (ولا تقربا) أي ولا تدنوا من الشجرة فتسول لكما أنفسكما الأكل من ثمارها ، وليس المراد الدنو منها كما هو ظاهره ، وإنما المراد الأكل .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : (يعني به ولا تأكلا من الشجرة لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها ، فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل ، لأن القرب من الشيء ينشئ داعية وميلا إليه ففي الحديث (من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه)) [43] .

وقوله : (هذه الشجرة) قال الفخر الرازي : (اختلف العلماء في نوع الشجرة فروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها البر والسنبلة ، وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشجرة فقال هي الشجرة المباركة السنبلة ، وروى السدي عن ابن عباس ، وابن مسعود أنها الكرم وعن مجاهد وقتادة أنها التين ، وقال الربيع بن أنس كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث ، واعلم أنه ليس في الظاهر ما يدل على التعيين فلا حاجة أيضا إلى بيانه) [44] .

وقوله : (فتكونا من الظالمين) أي من الذين ظلموا أنفسهم في التعدي على حدود الله وفيما يترتب على الأكل منها من المعصية .

يقول ابن جرير الطبري : (وأما تأويل قوله تعالى : (فتكونا من الظالمين) فإنه يعني به فتكونا من المتعدين إلى غير ما أذن لهم وأبيح لهم فيه وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة كنتما على منهاج من تعدى حدودي وعصى أمري واستحل محارمي لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين) [45] .

وبالرغم من اختلاف العلماء في اسم الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه إلا أن الله سبحانه وتعالى قد عين لهما الشجرة التي نهاهما عنها دون سائر الشجر الموجود في الجنة فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه فأكلا منها كما وصفهما الله عز وجل .

ولم يقم دليل من القرآن أو السنة على تعيين الشجرة أو حتى ما يشير إلى ذلك فيجب الإيمان بذلك على سبيل التعيين وليس المطلوب منا البحث عن اسم الشجرة .

ثم أخبر سبحانه وتعالى بأن الشيطان قد تمكن من إغواء آدم وزوجه بالأكل من الشجرة التي نهاهما عنها فقال : (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) .

قال ابن جزي الكلبي : ((فأزلهما) متعد من أزل القدم ، وأزالها بالألف من الزوال (عنها) الضمير عائد على الجنة أو على الشجرة فتكون (عن) سببية على هذا (فائدة) اختلفوا في أكل آدم من الشجرة فالأظهر أنه كان على وجه النسيان لقوله تعالى : (فنسي ولم نجد له عزما) وقيل : سكر من خمر الجنة فحينئذ أكل منها وهذا باطل لأن خمر الجنة لا تسكر) له [46] .

وقال الفخر الرازي : (قال القفال رحمه الله : هو من الزلل يكون الإنسان ثابت القدم على الشيء فيزل عنه ويصير متحولا عن ذلك الموضع ، ومن قرأ (فأزالهما) فهو من الزوال عن المكان وحكى عن أبي معاذ أنه قال : يقال أزلتك عن كذا حتى زلت عنه وأزللتك حتى زللت ومعناهما واحد أي حولتك عنه وقال بعض العلماء : أزلهما الشيطان أي استزلهما فهو من قولك زل في دينه إذا أخطأ وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله في دينه أو دنياه) [47] .

ومعنى الآية أي حملهما على الزلة بسبب الشجرة وقد وسوس لهما بقوله تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ [48]، وقوله :﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [49] ، وقاسمهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [50] .

(فأخرجهما مما كانا فيه) أي من الجنة أو من النعيم الذي كانا فيه [51] .

كان آدم وزوجه يعيشان في الجنة في ظلالها ويتمتعان بكل ما فيها من خير وسعادة ويأكلان من ثمارها إلى أن قام الشيطان بإغوائهما وحثهما على الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عليها، وقد وصف لهما هذه الشجرة بشجرة الخلد ، لأن الإنسان يحب البقاء والخلود ويحب أيضا الملك الذي يحارب عليه ما دام على قيد الحياة ، وهذا في قوله : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) .

وبسبب أكلهما من الشجرة انقلبت حياتهما من سعادة إلى شقاء ، ومن رغد في العيش إلى كفاح مرير من أجل العيش والبقاء ، وهكذا اقتضت حكمة الله أن يعيش الإنسان على وجه البسيطة ليعمرها ، وليستفيد من خيراتها ، ويستخرج كنوزها ، فعاقب الله آدم على خطيئته بنزوله إلى الأرض ، قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ .

والهبوط هو النزول من علو إلى أسفل ووجه الضمير في اهبطوا قيل لأن هبوط آدم وحواء اقتضى أن لا يوجد نسلهما في الجنة فكان اهباطهما اهباطا لنسلهما ، وقيل الخطاب لهما ولإبليس لأنه يعتبر السبب في إخراجهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض فمن هنا بدأت العداوة والبغضاء بين بني الإنسان لوجود إبليس في الأرض معهم .

اختلف العلماء من المخاطب بالهبوط ، فقال السدي وغيره : آدم وحواء وإبليس والحية ، وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة ، قال غيره والحية لأن إبليس قد كان أهبط قبل عند معصيته [52] .

(بعضكم لبعض عدو) أي اهبطوا متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله ، وليتمكن إبليس لعنه الله بإغواء أكثر الناس ، فقد أقسم بعزة الله لأغوينهم أجمعين ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[53] .

وقوله تعالى : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أي موضع استقرار ، وقال بعض العلماء المراد الاستقرار في القبور ، والمتاع : ما يستمتع به من أكل أو شرب أو لباس إلى غير ذلك من مستلزمات الحياة .

و(الحين) اختلف العلماء في الحين فقالت فرقة إلى الموت ، وقالت فرقة إلى حين يوم القيامة ، والحين : المدة الطويلة من الدهر ، وقد يستعمل الحين في المحاورات في القليل من الزمان .

قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) .

(قيل تلقى معناه : فهم وفطن ، وقيل قبل وأخذ ، وقيل بمعنى استقبل ، وكان عليه السلام يتلقى الوحي أن يستقبله ويأخذه ويتلقفه ، تقول : خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم ، وقيل : معنى تلقى تلقن ، وهذا في المعنى صحيح ولكن لا يجوز أن يكون التلقى في الأصل ، لأن أحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا)[54] .

وقرأ الجمهور (آدم) بالرفع و(كلمات) بالنصب ، وقرأ ابن كثير بنصب (آدم) ورفع كلمات على تأويل الكلمات فاعل ، وهي المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى لقبوله إياها .

وقد كثر الكلام في المعنى المراد من الكلمات (فعن ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم من العلماء هي قوله : ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾.

وعن مجاهد : (سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ربي ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم)) [55] ، وقيل المراد بالكلمات : البكاء ، والحياء ، والدعاء .

وقيل : الندم ، والاستغفار ، والحزن ، إلى غير ذلك من الأقوال الاجتهادية .

قوله : (فتاب عليه) أي قَبِل توبته ، أو وفقه للتوبة .

والتوبة : هي رجوع التائب إلى الطاعة ونبذ العصيان .

ولم تذكر توبة حواء هنا مع أنها مذكورة في مواضع أخرى منها قوله : ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾، وذلك لظهور أنها تتبعه في سائر أحواله وأنه أرشدها إلى ما أرشد إليه ، وإنما لم تذكر في هذه الآية لأن الكلام جرى على الابتداء بتكريم آدم وجعله خليفة في الأرض، والله أعلم .

الهوامش :

(1) سورة البقرة من الآية (30 – 38) .
(2) سورة الأعراف من الآية (11–27).
(3) سورة طه من الآية (115–127).
(4) سورة البقرة ، الآية (196) .
(5) الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثالثة دار الكاتب العربي للطباعة ، جـ 1 ، ص (261) .
(6) روح المعاني للألوسي ، إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان جـ 1 ، ص (218) .
(7) سورة الزخرف ، الآية(19).
(8) سورة التحريم ، الآية(6).
(9) تفسير الطبري ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت- لبنان، جـ 1 ، ص (156) .
(10) المصدر السابق ، جـ 1 ، ص (156).
(11) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، جـ 1 ، ص(399).
(12) سورة ص ، الآية (26).
(13) تفسير ابن جرير الطبري ، جـ 1 ، ص (158).
(14) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، جـ1 ، ص (403).
(15) استخلاف آدم عليه السلام ، د. علي محمد نصر، طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي – مكة المكرمة .
(16) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جـ ، 1 ، ص (282).
(17) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، جـ1 ، ص (415).
(18) البحر المحيط لأبي حيان ، الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض- المملكة العربية السعودية جـ – 1 – ص (148) .
(19) سورة المؤمنون ، الآية (116) .
(20) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جـ 1 ، ص (290) .
(21) سورة الإسراء ، الآية (70).
(22) سورة الزمر ، الآية (10).
(23) سورة التحريم ، الآية (6).
(24) سورة البقرة ، الآية (33).
(25) سورة يوسف ، الآية (100).
(26) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جـ 1 ، ص (293).

(27) سورة الرحمن ، الآية (4).
(28) سورة الرعد ، الآية (16).
(29) تفسير المراغي ، الطبعة الرابعة ، ملتزم الطبع والنشر ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، جـ 1 ، ص (86).
(30) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، جـ ، 1 ، ص (423).
(31) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جـ 1 ، ص (294).
(32) صحيح مسلم بشرح النووي،المطبعة المصرية ومكتبتها (الرحمن علم القرآن) ش عبد العزيز،جـ 16 ، ص 123.
(33) التحرير والتنوير، جـ 1 ، ص (420).
(34) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جـ 1 ، ص (299).
(35) المرجع السابق ، جـ 1 ، ص (301).
(36) التفسير الكبير للفخر الرازي ، المجلد الثاني عشر ،الطبعة الثالثة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان جـ 3 ، ص (3).
(37) سورة الكهف ، الآية (35).
(38) سورة القلم ، الآية (17).
(39) سورة الحجر ، الآية(48).
(40) سورة الطور ، الآية (23).
(41) سورة البقرة ، الآية (222).
(42) سورة الإسراء ، الآية (34).
(43) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، جـ 1 ، ص (432).
(44) التفسير الكبير ، جـ 3 ، ص (5).
(45) جامع البيان في تفسير القرآن ، جـ 1 ، ص (186).
(46) التسهيل لعلوم التنزيل ،الدار العربية للكتاب ، جـ 1 ، ص (44).
(47) التفسير الكبير ، جـ 3 ، ص (7).
(48) سورة طه ، الآية (117).
(49) سورة الأعراف ، الآية (19).
(50) سورة الأعراف ، الآية (20).
(51) تفسير المراغي ، جـ 1 ، ص (91).
(52) المحرر الوجيز لابن عطية ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، جـ 1 ، ص(242).
(53) سورة ص ، الآيتان (82-83).
(54) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جـ 1 ، ص (323).
(55) المرجع السابق ، جـ 1 ، ص (324) .